من غير عنوان

للقصصى الروسى تشيكوف

بقلم الأديب محمود البدوى

كانت الشمس فى القرن الخامس عشر تشرق كل صباح وتغرب كل مساء كما هى اليوم . وحينما تقبل أشعتها الأولى ندى الأرض تنفض هذه عنها غبار الكرى ، وتشيع فى الدنيا البهجة ، وتحلو الأمانى ، وتعود الأرض فى المساء إلى سكونها ، ثم تغوص فى غياهب الليل . وقد ترى أحياناً سحابة راعدة تلوح ، ويقصف الرعد وهو يزمجر ، أو تهوى نجمة من شاهق وهى وسْنَى ، أو يقبل راهب حثيث الخطى شاحب اللون ليخبر رفاقه بأنه رأى نمراً قريباً من الدير . كان هذا كل شىء ؛ ثم تعود ثانية الأيام تشابه الأيام ، والليالى تحاكى الليالى

كان الرهبان يصلون ويعملون : أما رئيس الدير فيعزف على الأرغن ، ويقرض الشعر اللاتينى ، ويؤلف النغم الموسيقى . وكان للكهل الحلو الوديع ذكاء نادر وسجايا حميدة . فهو يعزف على الأرغن ببراعة ، حتى أن معظم الرهبان الذين يضعف سمعهم كلما قربت نهاية حياتهم ما كانوا يستطيعون أن يحبسوا دموعهم كلما هفا صوت أرغنه من صومعته . وعندما يتكلم ولو عن الشئون العامة كالشجر الوريف والوحوش الضارية والبحر الخضم ، لا يسمعه إنسان دون أن ترى دمعة تترقرق فى عينيه ، أو بسمة ترتسم على شفتيه . فيخيل إليك أن الأنغام التى تتجاوب فى الأرغن هى بعينها التى تعتلج فى نفسه . وحينما يهيجه غيظ متمكن ، أو يأسره فرح شديد ، أو يتحدث عن أشياء مروعة تأخذه نشوة قوية ، ويتسايل الدمع من عينه اللامعة ، وتضرب وجهه الحمرة ، ويدوى صوته كالرعد . هنا يحس الرهبان المستمعون أن أرواحهم تذيبها عظمته وأنها تفنى فيه . لقد كانت قوته فى هذه الدقائق العظيمة العجيبة لا تحد ، فلو أمر شيوخ الدير أن يقذفوا بأنفسهم فى البحر لاستبقوا إليه مسرعين

كان موسيقاه وصوته وشعره الذى يبتهل به الى الله منبعاً لسرور الرهبان لا ينضب . ففى مدة حياتهم الرتيبة تنقلب الأشجار والأزهار والربيع والخريف إلى أشياء مملة ، ثم يقلقهم هدير اليم الزاخر ، ويصبح شدو الطير مملول النغم موزون الجرس . ولكن سجايا رئيسهم كانت لهم بمثابة القوت المحيى والقوة المجددة

كرت السنون وما زالت الأيام تشابه الأيام ، والليالى تحاكى الليالى ، وما دنا من الدير أحد ، اللهم إلا ضوارى الوحش وجوارح الطير . وكانت أقرب المساكن الانسانية بعيداً جداً . ولا تصل إليها من الدير أو تصل إلى الدير منها حتى تعبر صحراء ذرعها مائة ميل

والذين يجرؤون على القيام بهذا هم أولئك الذين لا يجعلون للحياة قيمة ولا يقيمون لها وزناً ، والذين نبذوها وراءهم ظهريا ونفضوا أيديهم منها جملة . يولون وجوههم شطر الدير وكأنهم يسيرون إلى القبر

ولشد ما كانت دهشة الرهبان عند ما قرع بابهم فى ليلة من الليالى رجل برهن لهم على أنه من

سكان المدينة ؛ وكان هذا الرجل أكثر الناس ارتكاباً للآثم وحبا للحياة . وقبل أن يصلى أو يرجو رئيس الدير أن يباركه طلب طعاماً ونبيذا

فلما سألوه عن سبب قدومه من المدينة إلى الصحراء قص عليهم قصة صيد طويلة : خرج يطلب الصيد ومعه شراب كثير فضل الطريق ، وعند ما أشاروا إليه أن من الواجب عليه أن يمسى راهباً أجابهم فى ابتسام :

« لست لكم بصاحب ! »

شرب وأكل ملء بطنه ، ثم رفع بصره إلى الرهبان الذين يقومون بخدمته وهز رأسه لائماً وقال :

« إنكم معشر الرهبان لا تعملون شيئاً ، كل ما تعنون به هو طعامكم وشرابكم . هل هذه هى الطريقة لخلاص أرواحكم ! فكروا الآن ! بينما أنتم تعيشون فى هدوء هنا ، تأكلون وتشربون وتحلمون بالخيرات والبركات إذا باخوانكم هناك قد كتب عليهم عذاب الجحيم . انظروا ما الذى يحدث فى المدينة ! بينما بعض ناس يموتون جوعاً ، إذا بالآخرين لا يعرفون كيف ينفذون الذهب . ينغمسون فى الدعارة ويهلكون فيها كما يهلك الذباب فى العسل ؛ ثم لا صدق ولا إخلاص بين الناس . من الذى يجب عليه انتشالهم مما هم فيه ؟ أأنا الذى أروح صريع الكأس من الصباح إلى المساء ؟ هل أنعم الله عليكم بالاخلاص ومن عليكم بالحب وحياكم القلوب الرحيمة ، لتجلسوا هنا بين هذه الجدران الأربعة ولا تعملون شيئاً ؟ ! »

وكان كلام الرجل السكير ينطوى على الجرأة والفحة ولكنه أثر تأثيراً غريباً فى رئيس الدير ، فنظر هو والرهبان بعضهم إلى بعض ثم قال رئيسهم بوجه شاحب : « إخوانى ! إنه لمحق . فصحيح أن الحماقة والضعف البشرى جرفا الأنسانية التعسة فى تيار الجحود والاثم فأهلكاها وقضيا عليها . وها نحن أولاء لا نريم من هذا المكان كأنه لا عمل لنا ولا واجب علينا . لماذا لا أذهب إليهم فأذكرهم بالمسيح الذى نسوه ؟ »

نالت كلمات رجل المدينة من نفس رئيس الدير ، ففى اليوم التالى أمسك بمكازه وودع إخوانه وركب الطريق إلى المدينة ، فأمسى الرهبان لا ينعمون بموسيقاه ولا بحلو حديثه ولا برائع قريضه

ترقبوه شهرا ثم شهرين فما عاد ؛ وأخيراً فى نهاية الشهر الثالث سمعوا نقر عصاه المألوف تخف الرهبان لملاقاته وأمطروه بالأسئلة ، ولكنه بدلا من مشاركتهم فى حبورهم بكى بكاء مراً وما نبس ببنت شفة . رأى الرهبان أنه أصبح نحيلا ، وأن أعراض الكبر قد بدت على ملامح وجهه

فما تمالك الرهبان وقد رأوا منه ذلك أن أجهشوا بالبكاء ؛ وسألوه عما يبكيه ، فما أجابهم بكلمة ، وغادرهم موصدا عليه بابه ومكث فى صومعته خمسة أيام ما شرب فيها شراباً ولا طعم طعاما ولا عزف على الأرغن . ولما طرق الرهبان عليه بابه وألحوا عليه فى الخروج ليشاركوه فى أساه كان جوابه الصمت العميق

خرج من معتكفه أخيراً وجمع حوله الرهبان وأخذ يقص عليهم ما حدث له خلال الشهور

الثلاثة التى خلت والدمع ينضح وجهه والألم يأكل قلبه ؛ ثم هدأت نفسه وتهللت أساريره حينما أخذ يصف لهم رحلته من الدير إلى المدينة . غنى الطير وخر الجدول على جوانب الطريق ، وجاش صدره بالأمانى الحلوة والآمال المعسولة . شعر بأنه جندى يتهيأ لاقتحام الموقعة والوصول إلى النصر المحقق . سار حالما يقرض القصيد ويصوغ النشيد ؛ وسرعان ما وجد نفسه فى نهاية الرحلة . على أن عينه أومضت باللهب ، ونفسه جاشت بالغضب ، وصوته ارتعش عندما بدأ يحدثهم عن المدينة والانسانية . ما كان رأى ولا تخيل قبل اليوم كل الذى رآه وأحصاه وهو فى قلب المدينة . رأى وفهم لأول مرة فى حياته سلطان ابليس وسيادة الجور وضعف القلب الانسانى الخاوى . هنا خمسون أو ستون رجلاً جيوبهم مترعة بالمال يقصفون ويشربون النبيذ دون حد ، أخذوا وقد تملكتهم نشوة الراح يرفعون عقائرهم بالغناء الساقط ، وينوهون فى شجاعة بأشياء جارحة لا يجرؤ إنسان يخاف الله جل سلطانه أن يشير إليها . فهم أحرار سعداء شجعان لا يخافون الله ولا يخشون الجحيم ولا يهابون الموت . يقولون ويفعلون ما يشاءون ، ويذهبون إلى حيث تسوقهم رغباتهم الجامحة

أما النبيذ فصاف صفاء الكهرمان ! وهو أيضا زكى الرائحة لذيذ الطعم ، لأن كل من يعب منه يطفح وجهه بالبشر ويرغب فى الشراب ثانية . وهو يجزى على ابتسام بابتسام ، ويتهلل غبطة كأنه يعرف أى ضلال جهنمى يختبىء تحت حلاوته

على مرجل غضبه وبكى أحر البكاء وأشجاه . ثم استطرد يقص عليهم ما رأى : « وقفت امرأة نصف عارية على منضدة وسط القاصفين ، ويصعب عليكم أن تتصوروا شيئاً أكثر فتنة وسحراً منها ! صبى ناضر زاهر ، وشعر طويل جثل ، وعينان سوداوان لامعتان ، وشفتان مكتنزتان محمرتان ، ثم سفاهة وجرأة وقحة . هذه البهيمة تبتسم فتفتر عن أسنان بيضاء كالبرد كأنها تقول : « انظروا ! إنى جميلة ومستهترة ... » وتتدلى من عاتقها الملابس الحريرية البديعة المشجرة . على أن جمالها لا تخبئه ملابس ، لأنه بشره يفسح لنفسه الطريق بين طيات ثوبها .. كأنه الأعشاب الصغيرة وهى تشق لنفسها الطريق فى الأرض زمن الربيع . وتشرب المرأة التى لا تستحى النبيذ ، وتغنى الأغانى ، ثم تستسلم بعد ذلك للمعربدين ... » لوح الرجل الكهل بذراعيه حانقا ثم استمر يصف لهم سباق الخيل ، وصراع الثيران ، والملاعب ، وحوانيت الفنانين حيث يعرض هيكل المرأة العارية مرسوما بالزيت أو منحوتا بالصلصال

* * *

كان الرجل فى حديثه لسنا ملهماً جهورى الصوت حلو الجرس كأنه يعزف على آلة موسيقية لا تقع عليها العين ، والرهبان ذاهلون عن أنفسهم ، غائبون عن رشدهم ، وقد أسرتهم كلماته وسحرهم بيانه ، فهم يلهثون من فرط السرور . فلما فرغ من وصف اغواء ابليس وفتنة الفسوق وسحر المرأة لعن ابليس ثم غادر المكان واختفى وراء بابه

فلما خرج من صومعته صباح اليوم التالى لم يجد راهبا واحدا فى الدير . فقد انطلقوا جميعاً مسرعين إلى المدينة !!

محمود البدرى